ترجمات | قسم الدراسات الدينية | 20 مارس 2019

ماذا لو كان العالم بلا إسلام؟!

غراهام فوللر

ترجمة: بدرالدين مصطفى

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019

ماذا لو كان العالم بلا إسلام؟![1]

المؤلّف: **غراهام فوللر** (GRAHAM E. FULLER)
ترجمة: **بدرالدين مصطفى**

1 هذه المقالة ترجمة للمقدمة والفصل الأول من كتاب:

Graham E. Fuller, A World Without Islam (New York: Brown And Company, 2010).

مقدّمة المترجم:

عالم بلا إسلام (2010) A World Without Islam، الذي نقدم ترجمة للمقدمة والفصل الأول منه، هو الكتاب الخامس لنائب رئيس المخابرات الأمريكية الأسبق غراهام فوللر، والذي يقدم فيه تصورا مثيرا، افتراضيا، عن عالم لا وجود فيه للدين الإسلامي. ورغم أنّ افتراض "ماذا لو؟" من الافتراضات الشائعة في التعامل مع الظواهر، خاصة الطبيعية منها، إلا أنّ تطبيق هذا الافتراض على معتقد له مثل هذا الرسوخ والامتداد التاريخي والجغرافي يمثل جرأة كبيرة وجدّة غير مسبوقة في الطرح. لا يهدف كتاب فوللر إلى رصد النتائج المترتبة على الافتراض، بل يوظف تلك النتائج لخدمة الهدف الرئيس من الكتاب والمتمثل في التأكيد أنّ الصراع بين الشرق والغرب، هو في واقع الأمر، متأصل تاريخيا بصورة تسبق ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية. ومن ثم، فإنّ أسبابه الرئيسة لا يمكن ردّها إلى الدين، بل هي في الحقيقة أسباب سياسية واقتصادية. إذا لم يكن الإسلام موجودا سيكون شكل الصراع بين الشرق والغرب كما هو الآن، لأنّ سبب الخلاف ليس دينيا ويعود من الناحية التاريخية إلى ما يسبق ظهور الإسلام. الجملة السابقة، تمثل فرضية كتاب فوللر التي يحاول إثباتها من خلال رصد العديد من الظواهر التاريخية، التي سعينا في هذا الترجمة إلى الكشف عن جزء منها.

الترجمة:

تخيل، إذا جاز لنا أن نتخيل مثل هذا الأمر، عالما بلا إسلام. يبدو الأمر مستحيلاً تقريباً، مع تلك الهيمنة الإسلامية على الصور والعلامات في عناوين الأخبار وموجات البث وشاشات الكمبيوتر والمناظرات السياسية. نحن مشبعون بمصطلحات مثل الجهاد، والفتوى، والمدرسة، وطالبان، والوهابية، والملا، والشهيد، والمجاهدون، والمتطرفون الإسلاميون، والشريعة. وهذا ما يجعل الإسلام في النهاية هو اللاعب الرئيس في ما يسمى بالنضال الأمريكي ضد الإرهاب، وذلك الالتزام طويل المدى بعدة حروب خارجية أطلقت مع «الحرب العالمية على الإرهاب».

في الواقع، يبدو أن الإسلام يقدم محكا تحليليا فعالا وبسيطا لمعظم الشؤون في الشرق الأوسط، والذي يمكن من خلاله فهم طبيعة العالم اليوم الذي يسوده التعصب. ومع وضع الإسلام في الاعتبار، يمكننا رد كافة الموضوعات إلى هذا الصراع الاستقطابي بين "القيم الغربية" و"العالم الإسلامي". بالنسبة إلى بعض المحافظين الجدد، فإن "الفاشية الإسلامية" هي، في الواقع، عدونا اللدود فيما يطلق عليه الآن الحرب العالمية الرابعة، والتي تلوح في الأفق أو "الحرب طويلة المدى" كفاح إيديولوجي عميق يركز بشكل رئيس على الدين ويتجاهل عددًا لا يحصى من العوامل الأخرى التي ساهمت في المواجهة الطويلة بين الشرق والغرب.

هذا الكتاب، سيطرح القضية من الجهة المقابلة لها أو لنقل بشكل معاكس، إذا لم يكن هناك إسلام، إذا لم يخرج النبي محمد من صحارى الجزيرة العربية، إذا لم يكن هناك وجود للإسلام عبر أجزاء شاسعة من الشرق الأوسط وآسيا وأفريقيا؛ فهل ستكون العلاقة بين الغرب والشرق الأوسط اليوم على نفس النحو الذي توجد عليه اليوم؟ أجل، أنا أجادل، قد تكون في الواقع مشابهة تماما لما نراه اليوم.

قد تبدو هذه الحجة للوهلة الأولى، من دون مبالغة، صالحة لتفسير التوترات الجيوسياسية عميقة الجذور بين الشرق الأوسط والغرب، والتي لها امتدادها التاريخي في الواقع، حيث تسبق زمنيا الإسلام، بل وتسبق المسيحية أيضا. وهناك العديد من العوامل الأخرى التي أثرت بقوة على تطور العلاقات بين الشرق والغرب على مدى فترات زمنية طويلة جدا: المصالح الاقتصادية والمصالح الجيوسياسية، الصراع على السلطة بين الإمبراطوريات الإقليمية والصراعات العرقية والقومية، بل وحتى تلك الاشتباكات الحادة داخل المسيحية نفسها، والتي وفرت أرضا خصبة للصراع والمواجهات بين الشرق والغرب التي لا علاقة لها بالإسلام.

بعد ذلك، دعونا ننظر إلى مسار الأحداث بين الغرب والشرق الأوسط بمرور الوقت، والذي يقدم تفسيرات بديلة قوية لجذور الصراع الحالي، والتي غالباً ما نربطها ببساطة "بالإسلام" في حين أنها تتجاوزه. من لديه اطلاع على شؤون الشرق الأوسط، سيدرك أنّ العلاقات بين الغرب - وخاصة الولايات المتحدة - والشرق الأوسط هي الآن مشوهة بشكل خطير. ما الذي يجري؟ لماذا الشرق الأوسط على ما هو عليه؟ والسؤال ذاته ينطبق على الغرب. إذا لم يكن الإسلام موجودا؛ فهل كنا سنتجنب الكثير من التحديات الحالية أمامنا؟ ألن يكون الشرق الأوسط أكثر سلماً؟ ما مدى اختلاف طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب؟ بدون الإسلام، هل سيكون للنظام الدولي صورة مختلفة تمامًا عما هو عليه اليوم أم لا؟ تهدف المعالجة المقدمة في هذا الكتاب إلى اقتراح بعض الإجابات التي تقارب هذه الأسئلة.

لم يظهر الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، أي اهتمام جاد أو متواصل بالشرق الأوسط حتى نصف القرن الماضي. لا يوجد وعي كاف بتاريخ التدخل الغربي في المنطقة على مدى قرون - أو حتى على مدى ألف عام. وثمة وعي سطحي فقط بالانتقادات الشرق أوسطية للسياسات الغربية التي تتناول النفط، والتمويل، والتدخل السياسي، والانقلابات المدعومة من الغرب، والدعم الغربي للدكتاتوريين المؤيدين للغرب، والتأييد الأمريكي المطلق لإسرائيل في القضية الفلسطينية المعقدة، والتي، بعد كل شيء، لم يكن لها جذور في الإسلام، بل في الاضطهاد الغربي ومعاناة اليهود الأوروبيين. وعبر حربين عالميتين خاضتهما القوى الغربية مع بعضهما البعض، صدّرت تلك القوى خلافاتها المحلية إلى العديد من دول الشرق الأوسط، وقد حدث هذا بصورة جلية مع انتهاء الحرب وبداية ما يعرف باسم الحرب الباردة. كل هذا يشير إلى أن العديد من العوامل الأخرى كانت فاعلة هي الأخرى في تكوين المشهد الراهن أو على الأقل تمتلك قدرا من الطاقة التفسيرية، كتلك الطاقة التي يمتلكها الإسلام، لتفسير الاضطراب الموجود حاليا.

لا يتمثل الأمر في مجرد "إلقاء اللوم على الغرب" أو "جلد الذات" بتعبير أدق، كما قد يهرع بعض القراء إلى استنباط ذلك. إنّني أزعم أن عوامل جيو-سياسية أكثر عمقاً خلقت العديد من عناصر المواجهة بين الشرق والغرب، وهي عوامل سبقت الإسلام، واستمرت مع الإسلام وحول الإسلام، وقد تكون متأصلة في الضرورات الإقليمية والتوقعات الجيوسياسية لأي دول تحتل تلك المناطق، بغض النظر عن الدين.

بطبيعة الحال، من السخف القول إن الإسلام لم يكن له أي دور على الإطلاق في تلوين عناصر هذه المواجهة بين الشرق والغرب. يمثل الإسلام ثقافة قوية وعميقة تمارس تأثيرًا كبيرًا على الشرق الأوسط، وما وراءه، بأكمله. ولكن فيما يتعلق بالعلاقات بين الشرق والغرب، أرى أنه يعمل في المقام الأول كواجهة أو شعار يخفي وراءه عوامل أخرى أكثر عمقا تفسر العديد من الصراعات والمواجهات التي تحدث.

إنني آمل هنا أن يؤدي هذا الفحص إلى إعادة التفكير في طبيعة الصراع بين الشرق والغرب، وكيف ينظر الأمريكان، على وجه الخصوص، إلى سياساتهم الخارجية. مثل هذه العملية من الفحص الذاتي يصعب على القوى العظمى القيام بها؛ فهي تعاني من نوع خاص من العزلة وقصر النظر: فامتلاك قوة عظمى يستدعي معه الشعور بالأمان والقدرة، القدرة على تجاهل المواقف التي تجدها الدول الأصغر تهديدًا أو خطرا، وهي لا تمتلك رفاهية تحمل الخطأ. لا تختلف السياسة الدولية عن الغابة: فالحيوانات الصغيرة والضعيفة على السواء، ينبغي أن تمتلك ذكاء حادا، قرون استشعار بالغة الحساسية، ودرجة عالية من المكر لضمان الحفاظ على ذاتها. إنّ الأقوياء - مثل الفيلة - لا يحتاجون إلى إيلاء اهتمام كبير للظروف المحيطة، وغالباً ما يقومون بما يحلو لهم بنوع من الاطمئنان، وفي المقابل هناك آخرون سيحيدون عن الطريق.

كلّ سلطة يصحبها نوع من الغطرسة: الاعتقاد بأننا نستطيع السيطرة على الوضع، نحن مسيطرون، يمكننا أن نقنع أو نرهب بكل سهولة - أو هكذا نفكر. في الواقع، قال أحد كبار المسؤولين في إدارة بوش، عندما سُئل عن الوقائع الوشيكة للحرب في الشرق الأوسط، دون ظهور بوادر لوأدها، "نحن نخلق وقائعنا الخاصة". إنّ مجرى أحداث العقد الماضي يكشف عن مدى صحة هذا الأمر أيضا.

المشكلة تكمن في المنظور الذي نستخدمه. تستخدم واشنطن - ربما كما فعلت العديد من القوى العالمية في الماضي - ما يمكن أن أسميه نظرية أو تصور "التطهير" لأزمات الخارج؛ أي إننا نعتقد أننا موجودون في جوهر تلك الأزمات وجزء منها، وبالتالي يتطلب الأمر التفكير في شؤوننا الخاصة، فنحاول المساعدة في جعل العالم على حق، ونواجه من أجل هذا وبلا نهاية، سلسلة من التحديات العصيبة التي يجب أن نتفاعل معها. وفي ظل هذا الوضع، لا يوجد أدنى اعتبار لأن تكون سياسات الولايات المتحدة نفسها على الأقل قد ساهمت في سلسلة من الأحداث الظاهرة. وهذا يمثل مفارقة كبيرة: كيف يمكن لأمريكا من ناحية أن تفخر بأنها القوة العالمية الوحيدة في العالم، مع أكثر من سبعمائة قاعدة عسكرية في الخارج والبصمة العالمية الضخمة للبنتاغون في أماكن شتى، ومع ذلك، من ناحية أخرى، تغفل عن هذا الوضع. أن تكون القوة المهيمنة غافلة عن حجم دورها في صناعة الأزمات، فكيف لها أن ترسم مسار الأحداث العالمية؟ إن هذا الوهم الذي يدور بنمط تفكير يؤمن بقصّة أليس في بلاد العجائب لا يؤثر فقط على صانعي السياسة، بل على تخمة مراكز التفكير التي تزخر بها واشنطن. إن التركيز على دراسة الوضع الداخلي في البلدان الأخرى وفهم ثقافتها وتقدير حجم مخططاتها يعد من السياسات الجيدة للدول، لكن ينبغي أن يكون الاهتمام بالشأن الداخلي على نفس هذا القدر. والملاحظ أن تأثير الإجراءات والمفاهيم الأمريكية غائب تمامًا عن المعادلة. من الصعب حصر كم التحليلات الجادة التي قدمت عبر بيانات أو مراكز الفكر السائدة والتي تتناول دور الولايات المتحدة نفسها في المساعدة على خلق مشاكل أو أزمات حالية، من خلال سياسات التجاهل

أو التكليف. نحن لا نتحدث حتى عن اللوم هنا؛ إننا نتطرق إلى الحقيقة المنطقية والواضحة التي مفادها أن تصرفات القوة العظمى العالمية الوحيدة في العالم لها عواقب وخيمة في مجريات السياسة الدولية. انها بحاجة الى فحص ذاتي.

ثمة مفارقة أخرى هنا: كيف يمكن لدولة مثل الولايات المتحدة، تعبر عن مثل هذه التدفقات القوية للوطنية وترفع العلم في كل مكان، أن تبدو متحفزة تمامًا لوجود التوجهات القومية والوطنية في بلدان أخرى؟ لم تكن واشنطن أثناء الحرب الباردة على ما يرام في فهم دوافع العالم غير المنحاز لها في حربها. فقد رفضت أو حتى قمعت التطلعات القومية المحلية واعتبرتها مزعجة، مما أدى في النهاية إلى دفع مجموعة كبيرة من الدول نحو تعاطف أكبر مع الاتحاد السوفيتي. كان هذا نوعًا من العمى الاستراتيجي الذي ينظر إلى مصالح ورغبات الدول الأخرى كشيء يجب أن يتم تحجيمه أو عزله. لقد كنا منفصلين عن قضايا الهوية والهوية في الشرق الأوسط وقمنا بتجميعها كلها في سلة واحدة هي "الإسلام».

عندما لا نحب عدوًا أجنبيًا، فإننا نميل إلى تشويه سمعته في عبارات قوية. أحد الجوانب غير الأخلاقية في الديمقراطيات الحديثة كونها تقوم بممارسة نوع من التشويه الكبير للعدو، والدافع وراء ذلك أنه يجب تحريك الأمة والرأي العام بما فيه الكفاية لدفع ثمن جسيم بالدم أو الكنز في الحرب. ورسالة لماذا نحن في المواجهة أو في الحرب، يجب أن تكون مبسطة بما فيه الكفاية لتلائم وضعها كملصقات للسيارات.

في عالم اليوم، أصبح "الإسلام" هذا الملصق الكبير لأمريكا، السبب الافتراضي للعديد من مشاكلنا في العالم الإسلامي. في الماضي، دخلنا في معركة مع الفوضويّين، والنازيين، والفاشيين، والشيوعيين - اليوم العدو هو "الإسلام المتطرف". أضع هذا المصطلح في علامات اقتباس ليس لأنه غير موجود، ولكن لأنه ظاهرة واسعة ومعقدة تأتي بأشكال وأحجام مختلفة، وتتطلب مجموعة واسعة من الاستجابات المختلفة. لا يبدأ المصطلح في تقديم وصف دقيق أو مفيد لأنواع المشاكل التي نواجهها في التعامل مع العالم الإسلامي. في تحليلات أكثر بساطة، نسمع أحياناً أن المشكلة لا تتمثل في "الإسلام المتطرف"، بل ربما في الإسلام نفسه. لماذا "يكرهوننا"، ولماذا يتبنون العنف، ولماذا "يكرهون الديمقراطية"، ولماذا لا يقبلون الثقافة والقيم الأمريكية، ولماذا ينخرطون في حرب العصابات أو الإرهاب، ولماذا يقاومون السياسات الأمريكية، ولماذا لا يقبلون الخطط الأمريكية الأفضل لمستقبلهم - يبدو أن الإسلام يقدم إجابة جاهزة عن هذه التساؤلات.

في الواقع، ليس هناك "عالم إسلامي" واحد يمكن أن نشير إليه، بل عوالم إسلامية متعددة أو العديد من البلدان الإسلامية وأنواع مختلفة من المسلمين. ومع ذلك، من المهم أن نكون على وعي بأن العالم الإسلامي قد تشكل بدرجة غير عادية على مدى العقود الماضية في ظل الاستعمار والحصار من الغرب بطرائق،

سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وبالفعل، فإن سياسات الولايات المتحدة في هذا الوقت ربما ساهمت بشكل فعال في تشكيل أمة مشتركة - المجتمع الدولي الجماعي للمسلمين - أكثر من أي عامل آخر منذ عهد النبي محمد.

لم يبدأ التاريخ مع 9/11. إن تعاملنا مع الشرق الأوسط يقطع شوطا طويلا قبل هذا التاريخ. كان الهجوم الذي حدث في أحداث الحادي عشر من سبتمبر عملاً عنيفًا ومتطرفًا وفاحشًا، لكنه كان أيضًا تتويجا تقريبًا لسلسلة أحداث سابقة على مدار سنوات عديدة. إذا اخترنا أن تكون بداية التاريخ مع تلك الأحداث - حيث نصبح فجأة الطرف الوحيد المتضرر والمعتدى عليه، والذي يمتلك التصريح الآن لتحقيق العدالة والقصاص للعالم - سنواصل ما كنا نفعله طوال الوقت، مع عواقب وخيمة واضحة للجميع.

يبدو بالطبع، أنّ الحديث عن "عالم بلا إسلام" سخيف نوعا ما؛ فنحن لا يمكننا إعادة كتابة التاريخ، ولا يمكننا أن نخمن حقيقة ما كان سيحدث في التاريخ، إذا لم تحدث أشياء أخرى. بعبارة أخرى، بمجرد دخولنا في نظرية "ماذا لو"، فإننا نفتح أبواب التخمينات التي لا نهاية لها. في الواقع، لقد كتب الكثير من الكتب المثيرة للاهتمام حول هذه التخمينات "ماذا لو" تحديدًا: ماذا لو لم يحدث أحداث 11 سبتمبر؟ ماذا لو لم يتم اغتيال فرديناند في سراييفو عام 1914؟ ماذا لو لم يتم إرسال لينين إلى روسيا من قبل الألمان داخل سيارة سكة حديد مغلقة عشية الثورة الروسية، وماذا لو لم تحدث الثورة البلشفية؟ أو ماذا لو فازت الكونفدرالية بالحرب الأهلية؟ هل سيكون عالمنا مختلفًا بشكل كبير عما هو عليه اليوم، أم أنه قد أخذ هذا الشكل المعقول عبر مدى طويل من الزمن، حيث لن تؤثر فيه هذه الأحداث؟

مثل هذه الأسئلة لا يمكن تفسيرها بطبيعتها، لكن الهدف من التمرين هو استخدام الخيال لإلقاء الضوء على التاريخ من زاوية بديلة، للسماح بظهور معالم وخصائص جديدة تظهر فجأة أمام أعيننا دون سابق إنذار. ربما كانت الاحتمالات 51 في المائة فقط أن حدثا سيظهر بالطريقة التي حدث بها. هذا يشير إلى أن هناك 49 في المائة من العوامل الأخرى الفاعلة التي لم تتحقق في النهاية. لكنها كانت هناك طوال الوقت، وربما ما زالت تحت السطح، وتمارس تأثيرًا كبيرًا، حتى إن لم يكن حاسماً، على الأحداث الأخيرة وربما مرة أخرى في المستقبل. أذكر أنني قضيت في منصب نائب رئيس مجلس الاستخبارات الوطني في وكالة الاستخبارات المركزية في الثمانينيات، حيث كنت مسؤولاً عن التنبؤ الاستراتيجي بعيد المدى. لقد استخدمنا من وقت لآخر نوعًا من التمرينات الذهنية المؤقتة في العديد من الأشياء التي غالبًا ما كانت تتضح بشكل تحليلي: نفترض حدثا مستقبليا مهما - على الرغم من أنه من غير المرجح أن يحدث - ثم نكتب سيناريو مختصرا يتضمن بعض التفاصيل حول كيفية حدوثه. لنفترض أن المملكة العربية السعودية تمرّ بثورة

إسلامية راديكالية، فكيف يمكن أن تحدث، في سيناريوهات محددة؟ افترض أن الحزب الشيوعي في الصين ينهار - كيف يمكن أن يحدث وإلى ماذا سيفضي؟ ما هي القوى الخفيّة، التي لم يتم تتبعها اليوم، والتي قد تأتي إلى الواجهة؟ الغرض من هذه التمارين هو إضفاء المادة والرّوح على سلسلة الأحداث التي لا يمكن تصورها أو هي غير المتوقعة؛ فهي تعمل على شحذ الملكات التحليلية لمؤشرات مثل هذه الأحداث المحتملة في حالة عدم وجود "ما لا يمكن التفكير فيه". إنها تمثّل تمارين في الخيال السياسي والاجتماعي، مجرد أداة واحدة من بين كثير من الأدوات.

بنفس الروح، ينظر هذا الكتاب في الأحداث الرئيسة في تاريخ الشرق الأوسط ويحاول تحديد القوى العاملة التي قد لا تكون لها علاقة بالإسلام، وهي أحداث كان يمكن أن تحدث بطرق مشابهة تقريبا بدون الإسلام. في الواقع، يسلط هذا الكتاب الضوء على الأحداث من زاوية مختلفة تمامًا، وخصائص واضحة ربما لم نلاحظها من قبل، حتى لو كنت لا توافق على بعض الافتراضات والتفسيرات، فإن الاحتمال الأكثر رجحانا هو أنك لن تنظر إلى الأحداث في العالم الإسلامي بنفس الطريقة مرة أخرى. هناك عوامل أخرى في العمل تصبح فجأة أكثر وضوحا، وتدفعنا لكي نعتبرها جديدة في تحليلاتنا الخاصة.

من المؤكد أنّ العديد من القراء سيعرضون مسارات بديلة عن تلك التي اخترتها - هذا جيد. أنا على وعي ذاتي بضرورة اتخاذ خيارات أخرى. في الواقع، يمكنني كتابة رد على بعض الحجج المقدمة هنا، لكن ليس هذا هو الهدف. الهدف من ذلك هو إعادة النظر في افتراضاتنا التبسيطية التي تجعل من الإسلام محورا يدور حوله الشرق الأوسط - سبب المشكلة والحل - وبدلاً من ذلك يستحضر الكتاب أنواعا أخرى أكثر عمقا من العوامل الحاضرة في العديد من المشاكل والقضايا الراهنة، التي تفسر طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب.

نقطة واحدة أود أن أوضحها: إن الغرض من هذا الكتاب ليس على الإطلاق تشويه دور الإسلام في تاريخ العالم أو رفضه. لقد كان للإسلام تأثير كبير على العالم، كواحد من أعظم الحضارات المستمرة وأكثرها قوة في التاريخ. لم تستمر أية حضارة أخرى على مدى فترة واسعة من العالم زمنيا مثلما فعل الإسلام. لدي احترام كبير للثقافة الإسلامية، والفنون، والعلوم، والفلسفة، والحضارة، وللمسلمين كشعب. الحقيقة أنّ العالم سيكون مكانا أكثر فقرًا في غياب الحضارة الإسلامية.

كما أنني لا أتجاهل حقيقة أنّ الإسلام قد أنشأ صرحًا قويًا ومميزًا - "العالم الإسلامي" - يربط بين أعداد كبيرة من الشعوب والدول والثقافات والطقوس المتنوعة بطرق قد لا تكون موجودة بنفس القوة في أديان أخرى. هذا أمر مهم للغاية لشعوب تلك المنطقة. لكن محور الاهتمام في هذا الكتاب يتمثل على وجه

التحديد في مسألة كيف ستكون العلاقات بين الغرب والشرق الأوسط، إذا لم يكن هناك إسلام؟. أنا لا أفحص كيف يمكن أن يختلف العالم الإسلامي كله إذا لم يكن هناك إسلام. أو ما الذي خسره الغرب في غياب الثقافة الإسلامية. نحن ننظر إلى المسار المستمر للعلاقات بين الشرق والغرب. وعندما نضع في اعتبارنا المدى الذي تدهورت فيه هذه العلاقات بشدة، فإنني أقول إن الإسلام ليس هو العامل الأساسي، أو حتى العامل الثانوي، لأنه يجب علينا النظر إلى مكان آخر. وفي اللحظة التي ننظر فيها إلى هذا المكان الآخر، ستنتابنا الدهشة من هذا التنوع الهائل للعوامل البديلة التي تؤثر على طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب.

أريد أن أضع بعض النقاط الإضافية أيضًا. أولاً، الغرب لديه ميل إلى اعتبار الإسلام مختلفا وغريبًا وشاذا ومتميزًا عن وجهات نظرنا الغربية. هنا أحاول وضع الإسلام في سياق الديانات الأخرى في العالم، ولا سيما اليهودية والمسيحية. إلى درجة مذهلة، يأتي الإسلام مباشرة من تقليد طويل من الفكر الديني في الشرق الأوسط، بما في ذلك الهرطقات المتعددة، التي تتلاءم مع كونها جزءًا لا يتجزأ من الصورة الدينية بأكملها. في الواقع، جاء الإسلام متوائما بشكل مريح مع أعداد كبيرة من التصورات والتيارات الموجودة مسبقا.

الموضوع الرئيس الآخر هو العلاقة بين الدين والسلطة والدولة. أنا أزعم أن الانتماء الوثيق للدين والدولة على مدار التاريخ الغربي قد أثر على المسيحية والتاريخ المسيحي بشكل كبير أكثر مما أثر على الإسلام والعالم الإسلامي. يصبح موضوع البدعة مهمًا جدًا هنا. إنني أنظر إلى الكيفيّة التي تصبح بها الهرطقة - الآراء الدينية التي لا تقبلها السلطة - في الغالب أدوات رئيسة للمعارضة السياسية للدولة على المستوى الجماعي. وهكذا، عندما ننظر إلى قضايا النزاع الديني، فكم نتحدث عن علاقات السلطة؟

أحاول أيضا أن أشير إلى حقيقة أنّ تطوّر الإسلام انتقل على طول المسارات التي غالبا ما تكون متشابهة أو موازية لتطور المسيحية؛ وتشير هذه الملاحظة إلى أن معظم الأديان تتبع مسارات معينة لا مفر منها عندما يتعلق الأمر بالإقرار بالكتاب المقدس، والحفاظ على العقيدة اللاهوتية، والتعامل مع ما يرسخ الإيمان وما يفسده، وما شابه ذلك. هنا مرة أخرى، ليس الإسلام وضعية خاصة بل هو يتناسب مع المسار العام للتطورات الدينية من الناحية اللاهوتية. هذا معناه أن الدين ليس في حد ذاته هو الذي يخلق التمييز بقدر ما يكون هذا التمييز ناتجا عن استخدام الدولة له، وعلاوة على ذلك، فإنّ تأسيس مجتمعات دينية متميزة قد يتوقف قليلا على اللاهوت وكثيرا على الصراع العلماني.

يكرّس الكتاب اهتماما كبيرا للتوترات والاختلافات بين المسيحية الأرثوذكسية الشرقية والمسيحية الكاثوليكية الغربية أو الرومانية. فلو لم يكن الإسلام قد قام بإزاحة الحكم المسيحي في معظم أنحاء الشرق

الأوسط، فستظل المنطقة برمتها اليوم على الأرجح تحت المسيحية الأرثوذكسية الشرقية. وتراوحت العلاقات بين الأرثوذكسية والكاثوليكية بين المشبوهة والعدائية لما يقرب من ألفي عام، على الرغم من العديد من التقاليد الكلاسيكية المشتركة. لذلك هناك أسس ممتازة لتخيل أن المسيحية الأرثوذكسية اليوم يمكن أن تكون بمثابة نقطة انطلاق دينية وأيديولوجية من أجل بلورة مظالم الشرق الأوسط ضد الغرب ـ لنشاهد التاريخ المتطور للأرثوذكسية الشرقية في مركز جاذبيتها الحالي، موسكو.

يستمر هذا الموضوع في فحص الحروب الصليبية: هل كانت حدثًا دينيًا أو جيوسياسيا؟ علاوة على ذلك، وبينما كان يُنظر إليها على نطاق واسع على أنها صراع بين المسيحية والإسلام، إلا أنها في الواقع كانت صراعاً سياسياً مهماً ثلاثي الاتجاهات بين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية والإسلام.

كما أخصص فصلاً للإصلاح المسيحي يعيّن أوجه تشابه مدهشة بين منطق الأحداث في أوروبا المسيحية وظهور ''الأصولية'' الإسلامية في ظل ظروف مختلفة لاحقًا. يبدو أن دور السياسة في كلتا الحالتين يسيطر على القضايا اللاهوتية. اللاهوت مرة أخرى يعمل في المقام الأول كوسيلة لتهيئة الفعل. ونلاحظ كيف أن فقدان سيطرة الدولة أو الكنيسة على اللاهوت أدى إلى تشدد كبير في كل من التقاليد المسيحية والإسلامية.

نجد بعض التشابه المذهل بين قضايا الصراع بين الأرثوذكسية والكاثوليكية من جهة، وبين المسيحية والإسلام من ناحية أخرى. وتشمل هذه القضايا المظالم التاريخية، ووجهات النظر المختلفة حول دور الكنيسة والدين في المجتمع، في صياغة القيم العامة والخاصة، والعلاقة بين الدولة والكنيسة/ المسجد، والنقاش حول معنى ''الدهرية'' في العالم المعاصر. يبدو أن العنف والدماء (الإرهاب) يحلان محلّ القضايا اللاهوتية التي غالباً ما تبدو تافهة نسبياً في حد ذاتها.

ثم يبدأ الكتاب في فحص موضوع المفكر السياسي صموئيل هنتنغتون في إشارة إلى ''الحدود الدامية للإسلام''، كما شرح في مقالته وكتابه المعروفين ''صراع الحضارات''. ما الذي نتحدث عنه هنا؟ إنني أنظر إلى طبيعة العلاقات المثمرة بين الإسلام وأربع حضارات رئيسة أخرى، كان لها اتصال وثيق على المدى الطويل: أوروبا الغربية، وروسيا الأرثوذكسية، والهند الهندوسية، والصين الكونفوشيوسية. في كل هذه الحالات، تم التوصل إلى أماكن معقدة ومتغيرة فيما بينها؛ نتج بينها تواصل عبر التلقيح. تقدم هذه العلاقات صورة أقل حدة عن الطريقة التي يدير بها المسلمون علاقاتهم مع الثقافات والأديان الأخرى أكثر مما يتم تصويره عادة في سيناريوهات مواجهة أكثر ضراوة وسذاجة معها.

قد يتعامل بعض القراء مع حقيقة أن الكتاب يركز أكثر على مظالم المسلمين ضد الغرب أكثر من الشكاوى العديدة التي قد يتعرض لها الآخرون من المسلمين. هذا هو الحال في الواقع. في المقام الأول، لا تكون وجهات النظر الإسلامية والمظالم التاريخية ضد الغرب معروفة جيّداً في الغرب. كان بإمكاني أن أكتب مطولاً - بل لقد كتب آلاف آخرون بالفعل - عن الاعتداءات التي ارتكبها المسلمون ضد المسيحيين، والهندوس، أو اليهود في وقت أو آخر في التاريخ: فكل شخص لديه قصص محزنة يمكن سردها. لدى المسلمين حكايات مرعبة بنفس القدر لتخبرهم بما فعله الآخرون بهم. لا يحاول هذا الكتاب توفير توازن في عدد حالات التشهير الدموي من جانب أو آخر؛ بل هو محاولة لوضع هذه الأحداث في نصابها - خاصة على طول خطوط الصدع الحضارية، حيث يلتقي الإسلام وينضم إلى الحضارات الرئيسة الأخرى. مرة أخرى، نرى كيف أن دور الإسلام عادة ما يكون أقل أهمية من المواجهات العرقية، التي قد تكون أو لا يمكن حلّها من خلال الخلافات الدينية على كلا الجانبين.

يتناول الجزء الأخير من الكتاب بعض التطلعات الحديثة للعالم الإسلامي، بدءاً بنظرة على تاريخ النضال الإسلامي ضد السلطة الاستعمارية. إننا نرى كيف أن نضال الشرق الأوسط ضد الإمبريالية الغربية قد حدث نسبيا على مدار العصر الحديث، وما زال التفكير المناهض للإمبريالية موضوعا عميقا في رؤية الشرق الأوسط للعالم اليوم. إنني أشير إلى أوجه التشابه مع الخطاب المناهض للإمبريالية وتجربة العديد من الثقافات الأخرى اليوم، بما في ذلك الصين، لإظهار كم نموذج من التفكير الإسلامي للثقافات الآسيوية الأخرى يتداخل مع النموذج الإمبريالي الغربي.

كما أنظر إلى أكثر المواضيع المعاصرة إلحاحاً - الجهاد والمقاومة والحرب والإرهاب. هذه هي القضايا التي تستولي على وسائل الإعلام، وتكون في الصدارة بشكل واضح؛ هي مصدر قلق مشروع بدرجة كبيرة، وكذلك موضوع للتخويف والمبالغة والتضليل.

وأخيرًا، في الفصل الختامي، أعود إلى اهتمامات سياسية محددة، وأعرض بعض النقاط الوجيزة غير المنسقة حول الكيفية التي يجب أن تتغير بها السياسات والمنظورات بشكل حاد إذا كنا سنخرج من المأزق الحالي الذي هو بالتأكيد مكلف للغاية للجميع.

من بعض النواحي، يتعلق هذا الكتاب، على الأقل، بالحضارات الأخرى المجاورة للإسلام - البيزنطية والروسية والغربية المسيحية والهندية والصينية- بنفس قدر تعلقه بالإسلام. ومن الأمور الأساسية في حجتي هي مدى ملاءمة الإسلام بطرق عديدة في الافتراضات والتطلعات الثقافية والتوقعات العالمية لهذه الثقافات الرئيسة الأخرى. هناك بعض الشكوك والمخاوف شبه العالمية من المجتمعات المسلمة وموقفها تجاه الغرب

اليوم، يتم تقاسمها في الواقع على نطاق واسع من قبل العديد من الثقافات الأخرى في العالم النامي، حتى وهي لا تتفق دائما حول التفاصيل الثقافية. وبعبارة أخرى، فإن العديد من القيم والآراء السياسية المنسوبة إلى العالم الإسلامي اليوم هي التي تقلق الغرب أيضًا في ''عالم بلا إسلام».

هذا الكتاب يعتمد على الحجة لا السرد، وأسعى من خلاله لإلقاء الضوء على بعض الاتجاهات والقوى المحددة التي غالبًا ما يتم تجاهلها أو طمسها في معالجات تاريخية أكثر تقليدية. من خلال وسيلة هذه الحجة الافتراضية، آمل في تقديم منظور جديد حول كيفيّة، وأسباب تطور الأمور في الشرق الأوسط، إلى ما وراء العوامل الإسلامية. في النهاية، آمل أن يفكر القارئ في الإسلام على أنه جزء أكثر تركيبا وتكاملاً من تجربة إنسانية وسياسية ودينية مشتركة في العالم. إذا كانت هناك ''مشكلة مع الإسلام''، فهي مشكلة تمسّنا أيضًا.

أشير إلى ''الإسلام'' مراراً وتكراراً في الكتاب، بما في ذلك هذه المقدمة؛ لكن بالطبع لا يوجد ''إسلام''، بل إسلامات؛ أو، بعبارة أخرى، هناك إسلام واحد، لكن هناك طرق عديدة مختلفة للمسلمين الذين يعيشون ويترجمون هذا الإسلام، تختلف اختلافاً كبيراً من بلد إلى آخر، ومن عصر إلى عصر، ومن قضية إلى أخرى، ومن شخص إلى آخر. في الواقع، الإسلام هو ما يظنه المسلمون، وكذلك ما يريدون أن يكون عليه الإسلام. إنهم مختلفون، كما هو الحال مع معتنقي الديانات الأخرى.

للتعميم على هذه الظاهرة الضخمة والفعالة، فإنّ الإسلام يعلّقها كالفراشة في صندوق جمع الفراشات للحفاظ عليها، لكي يتم استدعاؤها وفحصها كعينة في كل العصور. هناك بالفعل الآلاف من الفراشات، والأنواع تتطور وتتغير، حتى ونحن نسعى لفهمها. ومن سخرية القدر، أن المسلمين من جهة، وكذا أعداؤهم المتحمسين في الغرب من جهة أخرى، هم الأكثر تعصباً وصلابة، في السعي إلى تجميد الإسلام في ظاهرة واحدة ثابتة، سواء بهدف الترويج لها أو تشويه سمعتها.

في النهاية، آمل أن أقنع القارئ بأن الأزمة الحالية للعلاقات بين الشرق والغرب، أو بين الغرب و''الإسلام''، لا علاقة لها بالدين، وكل شيء يتعلق بالنزاعات السياسية والثقافية والمصالح والصراعات. ولتبعات هذا الاستنتاج أهمية كبيرة: فكل شيء له علاقة بكيفية معالجتنا في نهاية المطاف لمشكلة المواجهات الغربية-الإسلامية اليوم. هل نحن في الواقع نتجه نحو صدام حضارات عملاق صعب، حرب مئة عام جديدة أم حرب عالمية، كما اقترح البعض؟ إن مجموعة صغيرة من المسلمين والمسيحيين واليهود تكون في الواقع مثل هذا السرد الصارخ للصراع الوجودي. ولكن إذا توصلنا إلى أن الدين ليس هو القضية المركزية الفاعلة في ظل التوترات الحالية، فعندئذ لدينا فرصة أفضل بكثير للتعامل مع تلك القضايا، بل وحتى حلها، مهما

بلغت من تعقيد. وبهذا المعنى، نأمل أن نعمل على بناء أساس متين للديانات الإبراهيمية الثلاث العظمى - اليهودية والمسيحية والإسلام - التي تشترك أكثر مما تتنازع، وهي الأديان السائدة في الدول المتنازعة.

عندما يصبح الدين مرتبطًا بالقوى السياسية، فإنه يميل إلى فقدان روحه - بعده الروحي. ومع ذلك، ففي العديد من الأماكن، يتم التذرع بالدين بشكل متواصل في العديد من الصراعات الدامية حول الأرض والسيادة والسيطرة السياسية والأجندة السياسية والحفظ الوجودي للمجتمع. وهذا ينطبق على معظم الديانات: المسيحية والإسلام واليهودية والبوذية والهندوسية والشنتوية والعديد من الأديان الأخرى، بما في ذلك الديانات المحلية للسكان الأصليين.

إنّنا نعيش في وقت من الأوقات في الغرب، حيث يبدو التفكير العقلاني والعلماني، إلى حد كبير، رافضا ظاهرة الدين بوصفه قوة قديمة تحول دون تكوين نظام اجتماعي متزن في أفضل الأحوال، أو بوصفه مصدر للكراهية والصراع العنيف والحرب في أسوأ الأحوال. لقد استاء الكثيرون في الغرب من دعاوى "عودة الدين"، عندما بدت أنها أقوى وأحيانًا أكثر خطورة من أي وقت مضى. هناك جانب من الوجاهة في هذه الملاحظة. ومع ذلك، فإن القضية الحقيقية لا تتمثل في خطر الدين في حد ذاته، ولكن في التفكير العقائدي. إن الفظائع الحقيقية في القرن العشرين لا علاقة لها تقريباً بالأديان: حربان عالميتان، وفرانكو، وموسوليني، وهتلر، ولينين، وستالين، وماو، وبول بوت، ورواندا - موت مئات الملايين من الناس، وكلهم من أدعياء العلمانية، الأنظمة اللادينية التي استحوذت على الأفكار العقائدية ونفذتها بوحشية مهما كان الثمن.

أخيراً، لا أكتب حقًا عن الدين بوصفه إيمانا على الإطلاق، بل عن "الدين المنظم" كأداة عليا للعديد من جوانب التطلعات الإنسانية، بما في ذلك السياسة والمخاوف والدوافع والأحكام المسبقة والأحلام والإحباط. لا أود أن أقول إن هذه المخاوف نابعة بأكملها من الدين. ولكن بينما نشاهد معاناة القرن الحادي والعشرين، يجب أن نكون واقعيين للغاية بشأن العبء المعقد للقضايا التي يحملها الدين المعاصر؛ فأغلب ما يتم تصديره في المشهد على أنه "قضايا دينية" لا تتعلق حقيقة بالدين على وجه الإطلاق، مهما تم التذرع بذلك. وهذا ينطبق على أميركا بقدر ما ينطبق على القاهرة أو تل أبيب أو مومباي أو كولومبو. يتكلم الدين من خلال العديد من الأصوات. إنه يخدم غايات كثيرة نبيلة أو خسيسة. بهذه الروح، دعونا نلقي نظرة على عالم خالٍ من الإسلام. كم سيكون هذا العالم مختلفا من حيث علاقتنا بالشرق الأوسط؟ ما هي العوامل الأخرى التي نجدها فاعلة في تلك العلاقة بعيدا عن الدين؟

الإسلام والأديان الإبراهيمية

لم يلد ولم يولد

- القرآن 112: 3

كان هناك وقت طويل، بالطبع، عندما لم يكن هناك إسلام - حتى أوائل القرن السابع الميلادي، عندما تلقى النبي محمد آياته من الله وأعلنها للعالم. لكن من ناحية أخرى، سيكون من الخطأ النظر إلى تأسيس الإسلام بوصفه نقطة تحول وانقلاب في تاريخ الشرق الأوسط. من الناحية السياسية، قد تكون بالفعل نقطة تحول، ولكن من الناحية الدينية أو الثقافية، من السّهل أيضًا أن ننظر إلى ظهور الإسلام على أنه امتداد لخيط واحد؛ أي شكل آخر على مسار ما مستمر - التطور المتواصل للفكر التوحيدي الشرق أوسطي. ونحن نسمع مصطلح «الأديان الإبراهيمية» يستخدم بشكل أكثر تكرارا اليوم لإظهار الوعي بهذا التراث الثلاثي الموحّد الذي يشمل النبي إبراهيم، والذي يعانق ثلاث ديانات: اليهودية والمسيحية والإسلام. كل هذه الأديان مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، مهما كانت الاختلافات السياسية قد نشأت فيما بينها على مر الزمن. هذا في الواقع هو النقطة الأهم: السياسة والصراعات على السلطة وأهدافها السياسية هي غالبا السبب وراء تضخيم الخلافات اللاهوتية، بدلا من التركيز على التراث المشترك. النقاط الدائمة التي كانت موضعا للتوتر الجيوسياسي في المنطقة ما قبل ظهور الإسلام تميل إلى الاستمرار في توترها حتى بعد ظهور الإسلام. نحن نبحث عن الاستمرارية. سيكون من غير المعقول أن ننظر إلى الإسلام على أنه شيء غريب عن التقاليد الدينية في الشرق الأوسط. لقد استوعب الإسلام، ومثّل العديد من دوافع المنطقة وثقافتها الأكثر عمقا وحافظ عليها.

وإنّ خريطة لأديان الشرق الأوسط قبل الإسلام تكشف عن عالم تهيمن عليه المسيحية في شكلها الأرثوذكسي الشرقي؛ وهي تشارك الزرادشتية التوحيدية بعض فضائها في بلاد فارس (تحت الإمبراطورية الساسانية)، مع جيوب صغيرة من اليهود في عدد قليل من المناطق الحضرية، بينما سيطرت البوذية والهندوسية على شبه القارة الهندية. إنّ قطاعا من أوروبا نفسها كان تابعا للمسيحية، وكان قطاع آخر يتبع الوثنية. من الناحية الدينية، إذن، كان الإسلام متأخراً زمنيا، وفي الحقيقة كان آخر دين جديد في التاريخ قادر على التأثير على بنية الدولة. لكن الإسلام سيعوض الوقت الضائع في الانتشار بسرعة ليحتل مكانة مهيمنة على المناطق الضخمة التي كانت تحت السيطرة المسيحية والزرادشتية في الشرق الأوسط. وبدون الإسلام، كان من المرجح أن تظل المسيحية الأرثوذكسية الشرقية هي الشكل الديني السائد في الشرق الأوسط حتى اليوم، باستثناء الزرادشتية في إيران.

وعلى الرغم من أنّ توسّع الإسلام واستمراره في استيطان أجزاء كبيرة من العالم المعروف، كان له تأثير سياسي كبير مثل أي توسع آخر، فإنّ تأثيره من الناحية اللاهوتية، كان أقل بكثير على السكان المحليين في العقود الأولى. لقد نشأ الإسلام بالفعل من البيئة الدينية الموجودة في الشرق الأوسط بطريقة طبيعية وعضوية نسبيا. وفي الواقع، ما يثير الدّهشة هو كون الإسلام، من الناحية اللاهوتية، كان متوائما بشكل مرن تماماً مع البيئة الدينية القائمة.

بالإضافة إلى ذلك كانت ولادة الإسلام بعيدة بعض الشيء عن أوروبا، في صحراء نائية معزولة. وهي نشأة ثقافية غريبة عن جذور الثقافة الغربية. تتدفق أفكار الإسلام مباشرة من محيط ثقافي شرق أوسطي كان قد شهد منذ وقت طويل تبادلًا دينيًا مكثفًا وتلاقحًا متقاطعًا ونقاشًا مستمرًا. ربما لا توجد منطقة أخرى في العالم شهدت العديد من الأديان والمذاهب المتنوعة التي تمر عبر جغرافيتها كما هو الحال في الشرق الأوسط. ومع ظهور الإسلام، نشهد استعادة العديد من المواضيع والاهتمامات القديمة التي كانت جزءًا من التطور السابق لليهودية والمسيحية. وبعد أن شهدنا الصراع الديني والمذهبي في القرون الستة الأولى من المسيحية (التي سننظر إليها قريباً)، لا يفاجئنا لقاؤنا بالإسلام. لقد أثرت الحجج والمعتقدات التي نشرها الإسلام في نقاشات نألفها جيّدا: ما هي طبيعة الله الواحد؟ هل كانت رسالة اليهود قاصرة عليهم بوصفهم شعب الله المختار، أم إنّها تتجاوزهم لكافة الشعوب الأخرى؟ هل كان يسوع ابن الله حرفيًا، أم مجرد إنسان ملهم إلهياً؟

سوف ندرس قريبا الطبيعة المتميزة للعديد من هذه المناقشات، ونلاحظ كيف أن بعض العقائد الدينية انتصرت بدعم من السلطة السياسية، في حين أن عقائد أخرى لم تحظ بنفس الدعم السياسي قد تم شجبها على أنها نوع من الهرطقة.

وفوق كل شيء، سوف نرى كيف ارتبطت كل هذه الصراعات العقائدية ارتباطًا وثيقًا بسياسات الإمبراطوريات الكبرى. فالسلطة تجذب الدين باستمرار، والدين يجذب السلطة. أمّا اللاهوت، فأمر ثانوي. وعلاوة على ذلك، فإن القوى الدائمة للثقافة والعصر والتقاليد والتاريخ والمعتقدات قوية. لديها جميعا قدرة كبيرة لتضمين أحداث جديدة في قنوات جديدة أيضا. كان الإسلام، بكلّ تألقه الحضاري الجديد والمذهل، نتاجًا لبيئته الكبيرة.

جزيرة العرب

لم تكن الجزيرة العربية نفسها مكانًا معزولًا، بل كانت مرتبطة بصيرورة الفكر والبيئة الدينية الأكثر اتساعا وغليانا. وكان اليمن، في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية، مركز إحدى أقدم الحضارات في الشرق الأوسط وربما الموطن الأصلي لجميع الشعوب السامية، حيث هاجرت قبائل سامية من هناك في أقرب وقت يصل إلى بلاد ما بين النهرين، وغزت بلاد سومر قبل الميلاد وحولتها إلى ثقافة سامية. كانت تجارة التوابل والمنسوجات الغنية تمتد على طول ساحل البحر الأحمر إلى مصر، والمشرق، والبحر المتوسط، حيث كان اليمنيون على اتصال منتظم بالفينيقيين في الأيام الأولى. وقد أقامت ملكة سبأ في اليمن وكانت على اتصال مع مملكة أكسوم المسيحية في إثيوبيا. وكان للمسيحيين واليهود مجتمعات كبيرة في اليمن. وقد عاش فيها الفرس أيضا لفترة من الزمن.

وفي اتّجاه أبعد شمالا على طول ساحل البحر الأحمر (الحجاز)، نجد مدينة مكة، وهي واحدة من أهم مدن الجزيرة العربية، بتاريخها الذي يعود إلى ما يقرب من أربعة آلاف سنة. لا يوجد أي ذكر تاريخي لمكة في التاريخ القديم حتى عهد النبي محمد، على الأقل في مصادر خارجية. ومع ذلك، فقد أصبحت إحدى الأماكن التجارية الرئيسة على طول الطريق التجاري للبحر الأحمر إلى سوريا. وقد كانت المجتمعات اليهودية الرئيسة موجودة في العديد من المدن الرئيسة في الحجاز، وخاصة المدينة المنورة. وتقع الأراضي المسيحية للإمبراطورية البيزنطية في الشمال، مع مراكز رئيسة في ما يعرف اليوم بسوريا والأردن.

لقد غذت الجزيرة العربية أديانها التقليدية التي تتكون من آلهة محلية أو قبلية شبيهة بتلك المعروفة لدى الشعوب السامية الأخرى، بما في ذلك اليهود الأوائل. كانت معظم طقوس العبادة متمركزة حول الكعبة في مكة، التي كانت مستودعاً لحوالي 360 إلهًا، بما في ذلك تماثيل السيد المسيح والعذراء. لقد منحت تلك التماثيل مكة قوة اقتصادية وسياسية كبيرة: فقد تمكنت من فرض سيطرتها على مقاطعات قبلية ضخمة بهدف الإشراف على السياسة المعقدة بين القبائل في شبه الجزيرة والحد من الحروب القبلية المدمرة. ونتيجة لذلك، حافظت المدينة على علاقة معاهدة مع بيزنطة لتسهيل التجارة عبر المنطقة. كان رخاء مكة مصدرًا مباشرًا للتوترات السياسية والاجتماعية الجديدة أيضًا، حيث كانت الكيانات القبلية القديمة وأنظمة دعم القرابة تنهار في ظل نمو اقتصاد السوق المتصاعد؛ كانت القيم الاجتماعية القديمة تتلاشى، وخلقت فراغًا جديدًا.

كان هذا هو وضع الأرض في المصطلحات الجيوسياسية واللاهوتية، في عام 610 م، أضافت الكلمات التي تلقاها التاجر المكي الشاب محمد عبر الوحي فصلا جديدا إلى التطور المستمر للأفكار التوحيدية في تلك المنطقة. كان محمد صبيا يتيما يعمل لصالح عمه. وفي سن الأربعين، في الوقت الذي عاني فيه لفترات

من تقلبات نفسية كبيرة، أبلغ محمد عن تجربة رائعة تعرض لها خلال إقامته في الجبل: حيث زاره الملاك جبرائيل أكثر من مرة، وأمره بتلاوة كلمات من الله. وقد أبلغه بأن الله يأمره بأن يحمل رسالة مفادها أنه واحد، وأن ينقلها إلى القبائل الإقليمية وإلى المجتمع الوثني في مكة. شرع محمد في الترويج لهذه الرسالة وللتصدي للنظام الاجتماعي القاسي وغير العادل والوجود الوثني لتلك الأصنام التي تؤسس للشرك في الكعبة - وهو رمز للسلطة المكية والتجارية. ويتبادر إلى الذهن موقف السيد المسيح من المرابين، ولكن محمد كان له رؤية سياسية أيضاً.

والأهم من ذلك أن محمدا في وقت مبكر عرّف نفسه بأنه يسير على نفس خطى من سبقوه من الأنبياء كغيره من أنبياء العهد القديم، حيث يعود إلى الأنبياء الأوائل، آدم (في الإسلام) وإبراهيم. في الواقع، كان القرآن، الذي يحتوي على هذه الرؤى المتراكمة، قد عرّفهم بأنهم «أول المسلمين» - على الرغم من أنهم لم يحدّدوا أنفسهم بالطبع كمسلمين في ذلك الوقع - ببساطة لأنهم أول البشر الذين عرفوا تجربة الوحدانية. وأصرّ محمد أنه، أيضا، لم يكن أكثر من رسول أو نبي من الله، وليس لديه طبيعة إلهية. في الواقع، وبالنسبة إلى من يعيشون في المنطقة، لم تكن رسالته جديدة بشكل كبير، ولكنها ببساطة إعادة تأكيد صارخ للرسالة الأبديّة لوحدانية الله، في شكل جديد. لقد طور محمد أيضاً تصورا دينيا واضحًا ومباشرًا، مجرّدًا من النظريات الفضفاضة والمتعارضة حول طبيعة المسيح التي مزقت المراكز اللاهوتية عبر أراضي المسيحية الشرقية لمدة ستة قرون. وأكد على ضرورة العودة إلى شريعة الله من أجل تأسيس مجتمع أخلاقي.

وشروط اعتناق الإسلام بسيطة: لا يحتاج المؤمن الجديد إلا إلى الاعتراف بقلب نقي بالشهادة، أو إعلان شفاهي: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» ومن المتوقّع أن يفي جميع المسلمين بالواجبات أو الأركان الخمسة للإسلام: الشهادة، وإقامة الصلوات خمس مرات في اليوم، والصيام خلال شهر رمضان، والحج إلى مكة مرة واحدة في العمر، وإيتاء الزكاة.

تستلزم متطلبات الإيمان، الإيمان بالله الواحد، وقبول جميع أنبياء الله (بما في ذلك موسى، وعيسى، ومحمد)، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب المقدسة الرئيسة التي أرسلها الله - والتي تشمل العهدين القديم والجديد والقرآن - والإيمان بيوم القيامة والبعث والقدر. وقد وفرت الأسس العقائدية للدين الجديد سهولة النقل والتفسير والانتشار بشكل واسع.

كان محمد أول مسلم «أعلن»، أنه يعتنق الإسلام، أو يخضع لإرادة الله. لقد أدرك الحاجة إلى توضيح رسالة الإله الواحد ونشرها والكشف عن الأخطاء والتشوهات التي تسللت إلى التفسير الإنساني للرسائل اليهودية والمسيحية السابقة. لكن خط الوحي كان واحدًا.

وبطبيعة الحال، يرفض علماء المسلمين الأصوليون أية علاقة سببية في ظهور الإسلام غير الإرادة الإلهية. وبعبارة أخرى، لا يوجد اعتراف بالمصادر الخارجية أو الإقليمية المحتملة وتأثيرها على الوحي الذي تلقاه النبي. وهذا الرفض يمكن استيعابه إلى حدّ كبير في إطار التزاماتهم اللاهوتية. لكن البيئة التي عاش فيها محمد، بالطبع، ستمارس نفوذاً على عقله وتفكيره وشخصيته من شأنه أن يؤثر على قبوله للرسالة والطريقة التي تم فهمها بها واستيعابها من قبله نفسه وأتباعه. لذا، فإنه من الإنصاف أيضًا أن تتم دراسة التأثيرات الخارجية الممكنة والمقبولة على تجربة الوحي وتفسيره، بما يوازي تجربة الأنبياء الآخرين والشخصيات الدينية في التاريخ.

في هذا الوقت في شبه الجزيرة العربية، إذن، كانت معظم المفاهيم القرآنية الأساسية الجديدة مفاهيم مألوفة، بدءا من المعتقد اليهودي الذي أنكر يسوع بوصفه المخلّص، ولم يره إلا داعية للدين فقط. كما كان معروفًا أيضًا حجم «البدع» المسيحية التي انتشرت في جميع أنحاء الشرق الأوسط، وتكهنت بكافة جوانب طبيعة يسوع. وبالفعل، فإن التوحيد الصارم للقرآن كان أقرب في كثير من النواحي إلى آراء المسيحيين الأوائل في الشرق الأوسط، مما كانوا عليه في التسويات العقائدية المعززة لاهوتياً من الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية في السنوات اللاحقة، حيث دبت الخلافات حول موضوعات التوحيد الأساسية في كافة ثقافات المنطقة.

محمد هو أول نبي لدين رئيس عاش حياته تحت شعاع أضواء التاريخ. وهناك معلومات كثيرة حول حياته وأفعاله، سواء في القرآن الكريم أو حتى بصورة تفصيلية أكثر في الأدبيات المعاصرة له التي تناولت حياته وسجلت أقواله وأفعاله (الحديث أو السنة). ولكن حتى في ذلك الحين، واجه الإسلام المشاكل نفسها التي واجهتها جميع الديانات تقريبا، بما في ذلك المسيحية: ما مدى دقة روايات المعاصرين عن حياة النبي وأقواله؟ خصوصا وقد نقلت هذه الأقوال والأفعال شفويا؛ في الإسلام، وثمة ما هو أكثر من مئة عام قبل أن يتم جمعها في شكل مكتوب، وتحليلها، وتقييمها بشكل منهجي. وتوازي هذه المهمة المشكلة التي ظهرت في المسيحية والمتمثلة في جمع كل الروايات المتعلقة بحياة يسوع لتحديد الأناجيل «غير الموثوقة». وهذا موضوع لا يزال مليئًا بالسجال والنقاش وبحاجة إلى الحسم.

وعلى الرغم من أن الحديث ليس مقدّسًا كليّا في الإسلام، بما أن القرآن مستمد مباشرة من الله من خلال الوحي، إلا أنه سيوفّر مصدرًا أكثر أهمية من القرآن نفسه للتشريعات الإسلامية فيما بعد. يقدم الحديث ببساطة الكثير من المواد التي تتناول مواقف محددة وملموسة نشأت خلال تطور المجتمع الإسلامي المبكر ولم يتم التطرق إليها في القرآن. الحديث أيضا، يوفر دليلا مهما للإشارة إلى كيفية فهم النبي نفسه للوحي

الذي تلقّاه وتطبيقه له وفقا للظروف. قد يكون هنا مثال للمشابهة لهؤلاء المسيحيين الذين يسألون اليوم «ماذا كان يمكن أن يفعل يسوع؟»

وحتى الوقت الراهن، هناك مجموعات صغيرة داخل الإسلام تجادل بأن القرآن وحده - بسبب مصدره الإلهي - يجب أن يكون مصدرًا لفهم الإسلام، نظرًا للطبيعة المعقدة والمتغيرة لمختلف الأحاديث النبوية، واختلاف درجات موثوقيتها، وتوظيف بعضها من قبل السلطة. من المثير للاهتمام أن نلاحظ أوجه الشبه الواضحة هنا مع الأساس الكتابي (الكتاب المقدس وحده) لحركات الإصلاح التي أطاحت بكم هائل من تاريخ الكنيسة وتراكماتها، وأحكام المجلس الأكليركي، وما إلى ذلك، لصالح تأسيس الفهم اللاهوتي على أساس الكتاب المقدس وحده.

كانت العقبات العملية التي تحول دون تطبيق الدين الجديد للوصول إلى مجتمع ديني سياسي جديد، مهمة شاقة، خاصة في مواجهة المعارضة المبكرة مع النخبة المكية التي شعرت بسلطتها، وثروتها، ومكانتها مهددة مع رسالة محمد. أصبحت حياة محمد في ظل هذا الوضع مهددة بالخطر، لهذا فر النبي وأتباعه إلى المدينة المنورة، حيث أسس أول جالية مسلمة، وبدعوته قام بترأس القوى المتحاربة داخل المدينة من أجل خلق نظام جديد سلمي. ويشار إلى هذا باسم دستور المدينة، حيث تمت بلورة الحقوق والمسؤوليات والعلاقات بين مختلف القبائل والجماعات الدينية داخل المدينة - اليهود والمسيحيين والمسلمين - في وثيقة المدينة. في هذه الأثناء، ظلت الجالية المسلمة في المدينة المنورة مهددة سياسياً من قبل القوى المكية المعادية للإسلام على مدى سنوات عديدة، إلى أن تخلت مكة في النهاية عن معارضتها، وعاد الرسول منتصراً في قتال دموي عام 630 م. لقد انعكست هذه الفترة الطويلة من التوتر والعداء والحرب والتحالفات المتغيرة والخيانات في بعض المقاطع القرآنية التي تتحدث عن القتال والحروب، والتي تؤكد على الوحدة الإسلامية في مواجهة الأعداء الذين يسعون إلى تخريب المجتمع الوليد. إن الوعيد والغضب الإلهيين الذي أظهرته هذه المقاطع القرآنية العديدة يشبه ما تضمنته بعض مقاطع العهد القديم عن فترات مماثلة من نضال الإسرائيليين لمواجهة القبائل السامية المعادية، حيث يدعو العهد القديم إلى الاستئصال الوحشي لكل أعداء اليهود الذين وقفوا في طريقهم لتحقيق دولة في إسرائيل؛ المصالحة والسلام ليستا في روح تلك الفترات المضطربة في أي دين.

كان لمشكلة وثوقية الحديث تداعيات سياسية كبيرة مع تطور الإسلام، وانتشاره، وانخراطه في بناء الدولة الإسلامية. وكما هو الحال مع الكنيسة المسيحية، إلى أي مدى قد تسعى السلطات الدينية أو العلمانية الإسلامية فيما بعد إلى التأثير على رسالة الإسلام أو التحكم فيها أو تفسيرها بأثر رجعي؟ خلافا للمسيحية،

تجاوز الإسلام لحسن الحظ الجدل حول الألوهية المحتملة للنبي التي لم يدّعها محمد ولا أتباعه على الإطلاق. وفي الواقع، شهد الإسلام عددًا أقل بكثير من الهرطقات والانقسامات التي طالت التفسير الكتابي للمسيحية، وربما يرجع ذلك جزئياً إلى الخطوط العريضة لرؤيتها اللاهوتية. ومع ذلك، تظل أسئلة تفسير القرآن والحديث حتى اليوم أساسية في التطور المستمر للإسلام.

واجه الإسلام مع انتشاره لغات جديدة، وجغرافيا، وثقافات، وتجارب تاريخية عديدة. ومثل الديانات الأخرى، تكيف الإسلام مع الظروف المحلية لتسهيل قبول الإيمان الجديد واعتناقه. ولكن في نظر الإصلاحيين اللاحقين، كان ينظر إلى بعض هذه المواضع والتراكيب على أنها غير إسلامية، بوصفها بدعا، تتطلب التطهير اللاهوتي والعودة إلى أصل العقيدة. ستشكل هذه القضايا أساس التجديد الإسلامي والأصولية. مثل هذه التراكمات كانت أيضا قضية أساسية للإصلاحيين البروتستانت السابقين مثل مارتن لوثر.

نادراً ما تستند الصراعات بين الأديان وأتباعها إلى اختلافات لاهوتية محددة، بل تستند إلى تداعياتها السياسية والاجتماعية. دعونا نفحص جوهر بعض الاختلافات اللاهوتية الفعلية الموجودة في العلاقة الثلاثية بين اليهودية والمسيحية والإسلام. ما مدى أهمية هذه الاختلافات اللاهوتية في سياسات الشرق الأوسط القديم وفي فترة العصور الوسطى؟ عندما ننظر عن كثب، نلاحظ تكرارًا مستمرًا لبعض الحجج الأساسية حول طبيعة التوحيد التي تسود المنطقة والثقافة. نلاحظ أن الإسلام، بدلاً من تحويل المنطقة لاهوتياً، انتهى إلى تبني وضع متوازن مع الديانتين الأخريين، مما عزز نوعًا من التواصل اللاهوتي. إن النظريات الحديثة المتداولة التي تدعي أن الإسلام مثل نوعا من القوة الثقافية واللاهوتية التي أخلت بالإيمان اليهودي-المسيحي، أو أنه رسخ بذلك للشعور المعادي للغرب فيما بعد، تعمل على عزل التجربة الإسلامية تماما من سياقاتها الثقافية والتاريخية. في الواقع، يمثل الإسلام أعمق الاتجاهات الثقافية والفلسفية والدينية الموجودة بالفعل في الشرق الأوسط، بما في ذلك المواقف المتحفزة تجاه الغرب. لكن لم يخلق الإسلام هذه الاتجاهات. لننحي الإسلام بعيدا، وسنجد أن هذه الاتجاهات لا تزال قائمة. دعونا الآن ننظر في الكيفية التي ترى بها هذه الأديان الثلاثة بعضها البعض.

المنظور اليهودي للمسيحية والإسلام

لقد أثر نقد اليهودية للمسيحية بوضوح على عدد من الهرطقات المسيحية في وقت لاحق ـ وبالمثل على الإسلام كذلك. أولاً، وربما القضية الأكثر حساسية بالنسبة إلى الشرق الأوسط برمته، كانت القضية ذات الأهمية القصوى لطبيعة المخلص: في حين آمن المسيحيون أن يسوع هو المسيح الذي تنبأ به العهد

القديم، رفض اليهود يسوع، باعتباره هذا المسيح. وفي نظر بعض المسيحيين، اليهود هم أسوأ الهراطقة على الإطلاق، لأنهم في الواقع ينكرون ما تم ذكره في كتابهم المقدس؛ أي بشارة المسيح. يرفض العلماء اليهود إلى حد كبير تلك الحجة، مدعين أنه من الواضح تماما أن يسوع لم يكن ذلك الملخص الذي ورد ذكره في العهد القديم. يزعمون أن المخلص الحقيقي يحتاج إلى تحقيق عدد من النبوءات الخاصة من أجل أن يتم الاعتراف به بوصفه مسيحا: كان يجب أن يولد من نسل الذكور لداوود (كان يسوع يزعم أنه من نسل الإله)؛ وكان عليه أن يظل مخلصا لشريعة التوراة (من الواضح أن يسوع لم يفعل ذلك وسعى بالفعل لتغيير الشريعة). وسيفتتح المخلص الحقيقي أيضًا عصر السلام العالمي، عندما تتوقف الكراهية ويختفي الظلم من الوجود - وهو ما لم يحدث. كان العهد القديم يتوقع من المسيح أن يفي بهذه الآيات على الفور، وأن يتم ذلك مع قدومه الأول لا بعد «المجيء الثاني»، الذي لا توجد إليه إشارة في العهد القديم. لم يقبل اليهود أيضا الفكرة المسيحية القائلة بأن صلب المسيح ما هو إلا نوع من الخلاص للبشرية بأسرها، وبدلا من ذلك رأوا أن الخلاص يكون فقط عبر العيش الصالح، كما هو منصوص عليه في الشريعة اليهودية.

علاوة على ذلك، ثمة إدانة يهودية للمسيح على اعتبار أنه أفسد التوحيد اليهودي، مما أدى إلى انقسام اليهود على أنفسهم وإضعاف اليهودية. وقد عبّر عن هذا الأمر الفيلسوف اليهودي الكبير في العصور الوسطى واللاهوتي موسى بن ميمون Maimonides، الذي عاش في إسبانيا المسلمة، بتلك الكلمات:

كان يسوع الناصري أول من تبنّى هذا المخطط [للقضاء على أي أثر يذكر للأمة اليهودية]، قاتله الله ... لقد دفع الناس إلى الاعتقاد بأنه نبي أرسله الله لتوضيح الالتباس الموجود في التوراة، وأنه المسيح الذي تنبأت به التوراة. وقد فسر التوراة ومبادئها بطريقة تؤدي إلى إبطالها التام، وإلى إلغاء جميع وصاياها وإلى انتهاك المحظورات. وقد قام حكماء الذاكرة المباركة بفرض العقاب المناسب عليه، بعد أن أدركوا مخططه قبل انتشار دعوته بين أبناء شعبنا.

وهكذا، من وجهة نظر يهودية، فإن هذه الحجج تفند الحجة المسيحية التي تقول إن اليهود رفضوا عن قصد المخلص الذي تم التنبؤ به في العهد القديم، حيث تشير هذه الانتقادات إلى أنه من الواضح تمامًا للعلماء اليهود أن يسوع لم يستوف مواصفات المسيح التي تم التنبؤ بها.

جاء الإسلام ليقدم تصورا وسطيا حول هذا الموضوع من خلال الاعتراف بالمسيح كرسول عظيم من الله، ارتكب المعجزات وولد بالفعل من مريم العذراء. السورة التاسعة عشر من القرآن حملت اسم «ماري» [مريم باللغة العربية]؛ وقد ورد ذكرها أكثر من أية امرأة أخرى في القرآن - أكثر مما ذكرت في العهد الجديد نفسه. إنها الشخصية الأنثوية الأكثر تبجيلًا في الإسلام.

ومع ذلك، وفقا للإسلام، لم يكن المسيح هو الله نفسه، ولا ابن الله بصورة حرفية، بل هو نبي بشري ملهم إلهيا. الله واحد أحد. وبالنسبة إلى المسلمين، فإن أي إنكار للمسيح كنبي عظيم ينتهك معتقدات الإسلام نفسه. المسلمون، على سبيل المثال، يعلنون بصورة واضحة أن الأعمال الفنية التي تهين السيد المسيح تدخل تحت نطاق التجديف. ويشير القرآن الكريم بشكل مختلف إلى يسوع على أنه «كلمة الله»، «روح الله»، «علامة من الله». لا توجد أي تصورات سلبية عن المسيح في القرآن. وهكذا، في عالم خالٍ من الإسلام، لا يزال النقد اليهودي الأكثر قسوة بكثير، كما عبر عنه في اليهودية، قائماً.

اليهودية كذلك لا تقبل محمد كنبي. ومع ذلك، فإن العلاقة بين الإسلام واليهودية تبدو مدهشة أكثر بكثير من الروح الموجودة بين أي من تلك الديانتين والمسيحية. كل من اليهودية والإسلام توحيدية بشدة، وكلاهما يعلن وحدة الله عدة مرات في الصلوات اليومية. كل من اليهود والعرب هم شعوب سامية يتقاسمون الكثير من الفضاء المشترك والتاريخ الواحد، ويتحدثون اللغات ذات الصلة الوثيقة. كل من الإسلام واليهودية يستندان بقوة إلى الشريعة. يتم تحقيق الخلاص الشخصي من خلال الإيفاء الشخصي للشريعة في الحياة. كلاهما يمتلكان محاكم قضائية مجتمعية للفصل في العديد من القضايا وفقا للتشريع الديني. أصرت اليهودية على أنه لا يمكن تصوير الله أو تجسيده، وأنه لا يمتلك شكلًا بشريًا. يتبع الإسلام بإصرار تلك القاعدة نفسها القائلة بأن الله لا يمكن تجسيمه. وهكذا، بالنسبة إلى كل من اليهود والمسلمين، فإن الفن المسيحي صادم، إن لم يكن تجديفا، مع تصويره غير المقيد والمباشر والمفصّل لله في أنماط مختلفة - عادة كرجل أبيض قديم ولحيته بيضاء في ثياب بيضاء - ومع انتشار لوحات للسيد المسيح في مجموعة متنوعة ضخمة من السياقات المتنوعة والانتماءات الثقافية العديدة.

تشترك كل من اليهودية والإسلام في العديد من الأنظمة حول طقوس الأطعمة، وذبح الحيوانات، وتحريم لحم الخنزير، والتطهر أثناء ممارسة الشعائر، بل إن الإسلام استمدها في الغالب من اليهودية، ولكنه قام بتبسيط شريعة الكوشر اليهودية التي كانت بالغة التعقيد. لقد تأثر اليهود الشرقيون (السفارديم) في ممارستهم لدينهم عبر قرون طويلة من العيش مع المسلمين. وبينما في التاريخ الدموي للإنسانية أيضاً، عانى اليهود في نقاط مختلفة أثناء العيش في مجتمعات مسلمة، كان العلماء اليهود على وشك الإجماع في الاتفاق على أن المجتمعات اليهودية والثقافة اليهودية قد تطورت بشكل أفضل بكثير على مر القرون في ظل الإسلام مقارنة بالمسيحية. إن إقامة دولة إسرائيل في عام 1948، وإقامة وطن لليهود بعد التجربة المروعة للمحرقة في أوروبا - على حساب الفلسطينيين - يمثل نقطة تحول مأساوية حزينة في العلاقة بين المسلمين واليهود. في الواقع، هذه العلاقة التي توصف بالتوتر، أصبحت الآن جيوسياسية بالكامل، حيث تدور بالكامل حول قضايا الأراضي وعلاقاتها مع الدولة الإسرائيلية الجديدة.

المنظور الإسلامي في اليهودية والمسيحية

بوصفه آخر الديانات الإبراهيمية الثلاث، قدم الإسلام تصورا ماضويا حول طبيعة تطور الأولين. ووفقا للقرآن، ارتكب اليهود عدة أخطاء فادحة في تلقي الرسالة: فاليهود يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار على نحو فريد، فهم ينظرون إلى إله واحد ليكون إله اليهود، وينظرون إلى رسالة اليهودية بأنها لليهود. لا، هكذا قال القرآن، فالله ليس له شعب مختار: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا» (القرآن الكريم 19: 96). كانت هذه، بالطبع، رسالة القديس بولس في قطع نهائي مع اليهودية - أن رسالة يسوع عن الله ليست لليهود، بل للبشرية جمعاء. وهكذا يبرز الإسلام وجهة نظر تحريرية لسلفه اليهودي، وربما يتأثر برؤية بولس لرسالة المسيح التي وصفها بأنها عالمية.

مع ذلك، يشترك الإسلام واليهودية في نقد المسيحية؛ كلاهما يرى أن تصور «ابن» من الله معارضة لمفهوم الله الواحد، الذي لا ينجب ولا يمكن تقسيمه. مفهوم الثالوث على صلة وثيقة بالتصورات الشركية، سواء بالنسبة إلى اليهودية أو إلى الإسلام. كما أن المسيح لم يصلب، بل رفعه الله إليه. والمسيح، وليس محمد، هو الذي سيعود يوم القيامة لقتال المسيح الدجال، ومعاقبة أعداء الإسلام، وتحقيق العدالة.

ومع ذلك، فإن للتطور التاريخي طريقته في تغيير النظرة التي ينظر بها البشر إلى الدين مع مرور الوقت؛ هذا الواقع يساعد على تفسير الاختلافات بين الأديان. المسلمون في كثير من الأحيان يعترفون بهذا الواقع، حتى لو تم ذلك بطريقة ذاتية. لقد أخبرني المسلمون أكثر من مرة بأن «الأديان الثلاثة كلها من الله، ولكن تم استقبالها في أوقات مختلفة من تطور التاريخ البشري. وقد تطور فهم الإنسان لله في كل مرة. في المصطلحات التقنية الحديثة، يمكننا النظر إلى اليهودية كشيء مثل برنامج Word 2.0، وهو برنامج يعمل بشكل جيد في وقته، يعمل حتى الآن إذا كنت ترغب في ذلك. لكن المسيحية أتت، على سبيل المثال، ببرنامج Word 5.0، الذي لاءم إلى حد كبير تطور «البرمجيات» - استيعاب رسالة الله. ثم بعد ستمائة سنة، خرج الإسلام في شكل إصدار جديد Word 8.0، فهم الله الأكثر تعقيدا ورسالته الموجهة للجميع. كل "إصدار" يعمل، وهو مقبول، ولكن التقدم يتم عبر الوقت.

نحن بالكاد ملزمون بقبول هذا التعريف للتطور الديني المقدم في بعض الفكر الإسلامي المتداول، لكن التصور نفسه لتطور الفهم الديني احتل موقعه بين المفكرين الدينيين، حتى لو كانت مقارناته ببرامج مايكروسوفت مزعجة بدرجة كبيرة. تحدد كارين أرمسترونغ، في كتابها "تاريخ الرب"، معالم بارزة في التطور المستمر للفهم الإنساني للمقدس عبر الزمن.

ومع ذلك، ووفقا للمقارنات القائمة بين تاريخ التطور الديني والبرامج الحاسوبية ذات الشعبية الواسعة، يفتح المسلمون الباب أمام سؤال منطقي متواصل، وهو ما يدخل تحت باب الهرطقة في الإسلام: ألا يوجد احتمال بعد ذلك لإعلان لاحق عن إصدار جديد، وهو Word 9.0؟ بالنسبة إلى المسلمين، جاء النبي محمد برسالة الوحي النهائية والكاملة التي لا يعوزها شيء؛ لن يكون هناك أنبياء آخرون يمتلكون أية شرعية بعد الرسول. وبالتالي، فإن محمدا هو "خاتم الأنبياء". وقد وضع هذا التصور الإسلام في موقف محير؛ فهو متسامح تمامًا في النظر إلى التاريخ الديني السابق عليه، ولكن غير متسامح في التطلع إلى أي تعاليم دينية لما بعد محمد تتضمن وحيا جديدًا؛ هذا هو مصدر التوتر الشديد بين الإسلام وأفكار المعتقدات الأخرى كالأحمدية أو السيخية أو البهائية، التي لها أساس في الإسلام، ولكنها في الواقع تريد أن "تستكمل" الإسلام عبر تبنيها فكرة وجود أنبياء لاحقين. وبالتالي، فإن هذه الحركات الثلاث يدينها رجال الدين المسلمين بشدة، وقد تعرض أتباعها للاضطهاد في العديد من الدول الإسلامية.

آراء يهودية ومسيحية عن الإسلام

وأخيرًا، لدينا وجهات النظر اليهودية والمسيحية عن الإسلام، ذلك الوافد الجديد، لكنها وجهات نظر أقل لطفا من تلك التي أظهرها ذلك الوافد تجاههما. على النقيض من قبول الإسلام لأجزاء ضخمة من العهدين القديم والجديد، ترفض اليهودية والمسيحية محمد حتى بوصفه نبي الله. وليس من المستغرب أن ينبذوا بالتبعية فكرة أن رسائل العهد القديم والعهد الجديد يمكن "تحديثها" من قبل محمد. يتم التعامل مع محمد في كثير من الأدبيات المسيحية على مر العصور بوصفه زنديقا، أو شيطانا، بما في ذلك أن يتم إلقاؤه في واحدة من أدنى دوائر الجحيم كما في جحيم دانتي. (من نفس المنطلق، اعتبرت الكاثوليكية أيضا البروتستانتية هرطقة وعملا من أعمال الشيطان، وكان الأمر متبادلا بينهما).

إنّ العلاقات بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة جميعها معقدة ومدهشة: فهي تتوازى مع بعضها البعض في كثير من النواحي، وتتعارض مع بعضها البعض في معتقدات أخرى. ومع ذلك، يمثل الإسلام مرحلة جديدة قوية في استمرارية التقليد التوحيدي في الشرق الأوسط. ولد الإسلام وتعايش مع المسيحية واليهودية في نفس المنطقة. وعلى كون الإسلام أسس نظامًا سياسيًا جديدًا، فإننا لا نتحدث هنا عن دين جديد أو آلهة جديدة أو إدراك جديد للأخلاق. ولو لم يكن هناك إسلام، لكان العالم أقل ثراءً فكريًا، لكن الأساس الثقافي والديني للتفكير في الشرق الأوسط، ربما لن يكون مختلفًا إلى حد كبير.

جميع الديانات تقريبا تتطور من الملل والعقائد السابقة عليها. تطورت البوذية من الديانة والثقافة والفلسفة الهندوسية. ولم تنظر الهندوسية إلى البوذية بوصفها هرطقة وخروجا عليها. ونشأت السيخية من الهندوسية والإسلام. وظهرت البهائية من المسيحية والإسلام. من ناحية أخرى، يمكن أن تغدو الهرطقة عملاً إبداعياً للتفكير الديني التطوري، بينما تكافح الأجيال القادمة من أجل توضيح وإعادة تفسير تلك الدوافع والتفاهمات الدينية السابقة عليها، بما يتماشى مع محيطها الثقافي المعاصر.

من المفارقات المدهشة أن تكون التفاصيل الدقيقة والخصائص الثقافية المحددة داخل كل من هذه الأديان هي التي ينظر إليها من قبل أتباعها على أنها الأكثر أهمية لإيمانهم. هذه التفاصيل يمكن أن تؤدي إلى أعمال عنف ضد الآخرين. لذا، عندما تكون الاختلافات اللاهوتية الصغيرة سببا لإثارة الكراهية والعنف والحرب، فإنها تكون علامة مؤكدة أن الأمر يتجاوز بكثير مجرد كونه صراعا دينيا. إن الأمر أشبه بشجار عنيف نشب بين زوجين في المطبخ حول ما إذا كانت المعكرونة قد نضجت بشكل أكثر من اللازم: الغضب حقيقي للغاية، لكن من يرقب الأمر من الخارج سيدرك على الفور أن شيئًا آخر يحدث هنا أكثر من ذلك من مجرد خلاف حول إذا ما كانت المعكرونة قد نضجت بشكل أكثر من اللازم أم لا.

لذا في حالة الشرق الأوسط ودياناته، لا يمكن النظر إلى الدين بوصفه منشأ الصراع الحقيقي. من الواضح أن هناك أشياء أخرى على المحك: الهويات، والمجتمعات، والولايات، والسياسة، والسلطة، القومية الإقليمية. يشكل الدين علامة مؤثرة، وعنصراً مهماً في الهوية، حيث يكون اللاهوت عنصرا ثانويا فيها. في الواقع، نحن نادرًا ما نكون مسيحيين أو مسلمين أو يهودا باختيارنا. نحن نولد في واحد من هذه الملل وفقا للمحيط الذي نشأنا فيه؛ لا يتعلق الأمر بالموازنة أو الاختيار الحر بين الحجج اللاهوتية البديلة المقدمة لنا. كانت المجتمعات اليهودية قوة ثقافية قوية على مدى التاريخ، ولكن ليس بسبب تفاصيل شعائرية مميزة لليهودية. فالشعائر قد تختلف وتتنوع وتتعدد، وهذا هو حالها بالفعل. إن الهوية الثقافية والانتماء اللاهوتي هو الذي يدعم المجتمع على أساس عرقي أو ديني. وينطبق الشيء نفسه على تنوع الطوائف المسيحية، إذ يدعم الدين يساعد أسس المجتمعات. ويمكن للمجتمعات أن تنجرف نحو الصراع، أو حتى التقاتل على امتلاك الموارد والقيادة والسلطة.

في عصرنا الحديث، خطا العالم بعض الخطوات البسيطة والجادة نحو المصالحة الدينية والوفاق الديني، وحتى الاعتراف بعناصر مشتركة بين الأديان. وعلى سبيل المثال، فاستخدامنا المعتاد لمصطلح "اليهودية المسيحية" هو حديث العهد إلى حد كبير، ولم يأت إلى الصدارة إلا في بداية القرن العشرين. وقد تم ابتكاره من أجل الاعتراف ببعض القواسم الدينية التي تم تجاهلها في فترات التمييز المعادي لليهود خلال معظم

تاريخ المسيحية، على الرغم من أن الاختلافات بين المسيحية واليهودية هي الأضخم بين الأديان الثلاثة، من الناحية اللاهوتية. وفي السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية، نرى أن مصطلح "الأديان الإبراهيمية" قد بدأ في تحقيق بعض النجاح، مما جعل الإسلام مع الأديان الأخرى في خانة القواسم المشتركة. ويمكن النظر إلى تلك المحاولات بوصفها تعبيرا عن رغبة الإنسان الدفينة في إيجاد مناطق للاتفاق بدلا من الصراع، رغم أن ذلك لم ينعكس كثيرا على التفكير الديني الدارج.

الدين، والدولة، والسلطة، والهرطقة

الدين قوة تمتلك طاقة دفع هائلة، وهو يتعامل مع قضايا مثل معنى الحياة والموت والحرب والسلوك الأخلاقي والمجتمع، والجنس؛ بغية تنظيمها. إنه يعمل على النفس البشرية الفردية، وكذا الحالة النفسية، والسلوك. نادرا ما يقتصر تأثيره على الفرد وحده، بل يكون فاعلا في جماعة كاملة من المؤمنين الذين يشاركون في أعمال العبادة المجتمعية. في الوقت نفسه، يساعد الدين على تحديد الروابط المشتركة بين المؤمنين المنتمين إلى نفس الدين داخل المجتمع وتقويتها.

بالنظر إلى القوة الاستثنائية للدين، هل يمكن أن يكون مفاجئا لنا أن تسعى السلطة الدنيوية إلى توظيفه وتسخيره من أجل تحقيق غاياتها الخاصة؟ هذا هو المحور الرئيس لهذا الكتاب: العلاقات بين الدين والسلطة والدولة. تسعى الدولة في نهاية المطاف إلى تبني الدين والسيطرة عليه، مما يجعله "دين الدولة". وبمجرد ربطه بالدولة، تصبح عقائد الدين واللاهوت مرتبطين بهيبة الدولة وقوتها وسيطرتها. يمكن أن تكون الديانة يهودية، أو مسيحية، أو إسلامية؛ هذا لا يهم حقا. لأننا إذا ما وصلنا إلى تلك المرحلة، فلن يكون الاختلاف على العقيدة مجرد ممارسة لاهوتية، بل يأخذ في طياته تداعيات سياسية خطيرة. أولئك الذين يتورّطون في خلاف مع الأيديولوجية التي تهيمن عليها الدولة يُنظَر إليهم على أنهم هراطقة - في الواقع، يمكن أن ينظر إلى هذه الخلافات بوصفها نوعا من الخيانة.

لكن ما هي الهرطقة في الواقع؟ تستحضر هذه الكلمة إلى الذاكرة صور محاكم التفتيش، وأدوات التعذيب، ودموع الندم وطلب الغفران، والقتل، والحرق صلبا. هكذا كانت الهرطقة دوما في التاريخ. ولكن إذا كانت الهرطقة في الغالب قد حظيت بصيت سيّئ، إلا أنها ارتبطت في الواقع ارتباطًا وثيقًا بعملية إبداعية في تاريخ الأفكار وتطورها.

أصل كلمة "هرطقة" بريء بما فيه الكفاية؛ فهو في اللغة اليونانية، كان يعني ببساطة "الاختيار"، وهو قرار واعٍ باتباع مسار معين للأفكار. وفي المسيحية، بدأت الكلمة تدلّ على الاختلاف عن التعليم

الأرثوذكسي. والأرثوذكسية، بالطبع، لم تكن تعني في الأصل سوى "الرأي الصحيح". ولكن من ذا الذي سيحدد ما هو "الصائب" أو "الصحيح"؟ هذا هو جوهر المشكلة: مقدار الهرطقة يكمن في عين الناظر. وفي نهاية المطاف، يبرز تحديد ما هو "الرأي الصحيح" بشكل صارم تقريبًا على اعتبار أنه من صلاحيات السلطة.

لقد نشأت الهرطقات منذ فجر الطوائف الدينية الأساسية، عندما ألقي باللوم على الأفراد الذين وقفوا ونقدوا تعاليم المجتمع حول الآلهة والأرواح بسبب كوارث حدثت لاحقاً في المجتمع. تتم التضحية بالضحايا على المذابح، ويتم إلقاء العذارى على البراكين المشتعلة لاسترضاء الآلهة. إن المصاعب التي واجهها أنبياء العهد القديم جعلتهم يسلّطون الضوء على الكيفية التي جلب بها الإثم اليهودي المعاناة للشعب اليهودي، وكيف سينزل الله المزيد من العقوبات على المجتمع لعدم التزامهم بوصاياه. فقد ألقي النبي يونس في البحر، وبشر المسيح بقرب نهاية هذا العالم الآثم.

يبدو أن الحفاظ على العقيدة يظهر كمشكلة عليا ومثيرة للجدل في جميع الأديان التوحيدية الثلاثة، أكثر بكثير من ديانات العالم الرئيسة الأخرى مثل الهندوسية، والبوذية، والطاوية، أو الكونفوشية. وقد يرجع ذلك جزئياً إلى حقيقة أن الأديان التوحيدية "أبدية"؛ بمعنى أنه يُعتقد أنها قد وُجدت إلى الأبد وتسبق بالضبط لحظة الكشف عن أنبيائها؛ هناك مساحة أقل للمرونة في العقيدة.

أتذكر المناقشات في الهند منذ عقد من الزمان، عندما كنت أبحث عن مادة لكتاب عن الإسلام في مواجهة الغرب. أخبرني العديد من الباحثين المتخصصين في الهندوسية، "اقتراحك معيب منذ البداية. خط الصدع الحقيقي ليس بين الإسلام والغرب على الإطلاق، ولكن بين الهندوسية، التي تؤمن بتعدد الآلهة، وكل الديانات التوحيدية، اليهودية والمسيحية والإسلام." من وجهة نظر هندوسية، تغدو الديانات التوحيدية، مع التزامها بالقول بإله واحد وبالوحي، بطبيعتها أضيق أفقا وأكثر تعصبا.

كلنا يعرف استخدام الدين وإساءة استخدامه في التاريخ من قبل الدول أو مجموعات القوى في الحروب أو السياسة أو النضال من أجل أهداف أخرى. بطبيعة الحال، سيكون من السذاجة اختزال ظاهرة الدين بأكملها في مجرد كونه ذريعة للسلطة والصراع. ومع ذلك، فإن استغلال الدين للأهداف العلمانية ثابت في التاريخ السياسي والاجتماعي. وهكذا تنتهي المؤسسات الدينية إلى قضاء الكثير من الوقت في محاولة للحفاظ على العقيدة. بهذا المعنى، إذن، تمثل الأرثوذكسية الحق في تحديد الأفكار التي تؤثر على السلطة والسيطرة عليها.

دعونا لا نجعل الأمر قاصرا على الدين فقط؛ ”الأرثوذكسية“ تسود في جميع مجالات العمل الإنساني، بما في ذلك التاريخ والفلسفة، وحتى العلوم. تجد الأرثوذكسية أينما تجد التعصب الإيديولوجي يحل محل الشك، والتحقيق، والنقاش، وحيث يتم دعم هذا اليقين من قبل السلطة. أذكر كيف أن الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، كان يهيمن بقوة من قبل ستالين على مجموعة واسعة من المجالات الفكرية بما في ذلك التاريخ والفنون والعلوم. وقد ترك غير المؤمنين بالشيوعية في العديد من المجالات لمواجهة مصيرهم برصاصة في مؤخرة الجمجمة في الأبراج المحصنة في الكي جي بي. كانت الأرثوذكسية والأيديولوجية موجودة هناك لخدمة استقرار الحزب الشيوعي في الحكم. فالأحزاب السياسية أيضا، وخاصة الأيديولوجية، تتراوح صعودا وهبوطا بحسب قدرتها على صياغة المعتقدات التي تجذب الأتباع، وتكون قادرة على تنظيمهم. وتسعى الأحزاب إلى فرض الإجماع الأيديولوجي على أعضائها. ففي غياب التوافق، ينهار الحزب، إن كفاح الأحزاب السياسية للحفاظ على نقائها الأيديولوجي لا يختلف كثيراً عن تعامل الدولة مع العقيدة الدينية، باستثناء أن المنظمات الدينية تمتلك الورقة الرابحة في استنادها إلى قوة عظمى - قوة الإله.

وتقع الهرطقة عند نقطة تقاطع الإيمان والسلطة. عندما تصبح الأديان مؤسسية، فإنها تواجه مشكلة ”وضع يد“ الدولة عليها من أجل السيطرة على العقيدة؛ فالعقيدة لا تعني أيّ شيء إذا كان لأي شخص الحرية في الإيمان بها أو رفضها، أو كان الفرد حرًّا في صياغة نوع منها يتوافق مع أهوائه. إن البحث عن الله نفسه في النصوص كان في الواقع الأساس المنطقي النهائي للإصلاح البروتستانتي، وهو ما أدى إلى انقسام المسيحية على نطاق واسع إلى شظايا من المجتمعات الدينية الصغيرة. كذلك، فإن السلفية الأصولية أو المذهب الوهابي هو بالمثل توجه ثوري في دعوته للفرد لتفسير الكتاب المقدس مباشرة، وليس من خلال بعض الوسطاء.

السلطة إذن هي الفخ النهائي، الفسق الأكبر: فكلما ارتبط الدين بالسلطة السياسية القائمة، ابتعد عن عالم العقل والروح وسقط في عالم السياسة - مع تداعيات ذلك المباشرة على شكل الدولة وسلطتها. لا يمكن للدولة بعد ذلك، أن تتجاهل الدين. عندما يتم الطعن في المعتقدات والمذاهب الرسمية التي تتبناها الدول، فإن سلطة الدولة نفسها تواجه تحدّيًا - ولا يمكن للدولة في هذه الحالة أن تتعامل بنوع من التسامح.

إنها دورة للتبادل النفعي. يأتي الدين لخدمة مصالح الدولة، ثم تقوم الدولة بتجنيد رجال الدين الذين يمنحون تأييدهم لقرارات الدولة. لا يزال كل من الإسلام والمسيحية، مع ارتباطهما الطويل بسلطات الدولة المختلفة عبر التاريخ، يواجهان هذا التحدي حتى يومنا هذا. في الواقع، كانت الكنيسة والدولة في المسيحية أكثر ارتباطاً بكثير في معظم التاريخ المسيحي، مما كان عليه الحال في الإسلام، حيث لم تكن السلطة الدينية

أبداً تمارس الحكم السياسي - حتى جمهورية إيران الإسلامية اليوم. في هذه الأثناء، كانت اليهودية، التي تفتقر إلى أدوات سلطة الدولة في معظم تاريخها، أكثر قدرة على تجنب هذا المسار، على الرغم من أن اليهودية أصبحت مرتبطة الآن بالسلطة الإسرائيلية الحديثة وسياستها، لهذا ينطبق عليها الآن ما ينطبق على المسيحية والإسلام.

وبالعكس، عندما يصبح الدين مستقلاً عن الدولة، فثمة شيء يحدث في غاية الأهمية: حيث تفقد الدولة فعلياً وصايتها في الحفاظ على العقيدة الدينية الصحيحة. ولكن حتى في هذه الحالة، فإنّنا نبقى غير متحرّرين بصورة كاملة. فحتى المعتقدات الدينية الشخصية تبقى تؤثر على الدولة إلى حد كبير إذا كانت بعض العقائد والآراء تؤثر على تصور الجمهور للدولة. وبالتالي، فإنّ بعض الحركات الإنجيلية في الولايات المتحدة تؤثر بشكل مباشر في نظرة الجمهور العامة إلى الحكومة؛ كذلك هو الحال بالنسبة إلى الحركات الأصولية الإسلامية التي ترى أن الدولة يمكن أن تهدد بشكل مباشر شرعية الأنظمة الاستبدادية الأكثر علمانية.

لا يعني هذا على الإطلاق الادعاء بأنّ الدين ليس أكثر من واجهة لصراع السلطة. يمكن له أن يكون كذلك بالفعل؛ غير أنّ القدرة البشرية على توظيف الدين لخدمة الأهداف السياسية أو التجارية لا ينبغي أن تقلل من القوة الروحية العميقة التي يمتلكها الدين في تشكيل حياة الفرد الشخصية وفلسفته وسلوكه، وبالتالي سلوك المجتمع ككل.

حتى التسامح يمكن أن يكون مجرد وهم. يبدو أن الهندوسية قد تجنبت بشكل ملحوظ معظم مشاكل السلطة والأرثوذكسية. وبالفعل، فإن مفهوم الأرثوذكسية والهرطقة غائب تمامًا في الهندوسية، لأنها تحتضن جميع الأفكار الدينية، فكلّ منها يمثل رؤى جزئية ولمحات من عناصر الحقيقة كأجزاء من حقيقة شاسعة، أساسية، غير مدركة في صورتها الكلية، ولا يمكن معرفتها في نهاية المطاف عن طريق الإله. لكن هذا الوجه التعدّدي المتسامح في الهندوسية سيختفي في حال ما إذا كان الهندوس يهيمنون على الدولة، أو يشكلون أغلبية داخلها، إذ سيظهر التمييز، والاضطهاد، والعنف الوحشي تجاه أتباع الديانات الأخرى. وقد شهد العالم للأسف في الآونة الأخيرة استخدام العنف تحت قيادة قادة الهندوس المتشددين أنصار القومية الهندوسية ضد المسلمين والسيخ والمسيحيين.

كلّ هذا له علاقة بالسياسة والقومية ولا علاقة له بالعقيدة الدينية في ذاتها. لاحظ هنا أن الهندوسية، أيضًا، يمكن ترجمتها بسهولة إلى نوع من القومية الدينية المتعصبة والضيقة، في حال وجود خطر دخيل على الدولة. هذا يوازي ما يحدث مع الأصولية الإسلامية، عندما تعمل كحركة «وطنية إسلامية» ضد التوغل الغربي. فحتى البوذية، رغم أنها ترفع شعار السلام العالمي، إلا أنها عندما تقترن ببعض الصراعات

العِرقية، مثلما هو الحال مع السنهاليين في سريلانكا ضد التاميل الهندوس، فإنها تفقد بسرعة الاعتبارات الأخلاقية السلمية، حتى على جانب الرهبان البوذيين، عندما يتعلق الأمر بالقتال باسم المجتمع السنهوي البوذي. تبدو شعارات الدين لا قيمة لها في مثل هذا الوضع.

هل يمكننا أن ننسى أن الله في الإسلام له تسعة وتسعون اسمًا: الرحيم، والرحمن، والمولى، والمنتقم، والمعز، والناصر، والمهيمن، وما إلى ذلك - كيف يمكن أن تكون جميع هذه الوجوه المختلفة، أشكالا، للإله ذاته؟ لا أحد يدّعي أن الإسلام تعددي الآلهة، لكنه يعترف بوضوح بالوجوه المتعددة للإله الواحد.

التسامح- الشمولية- التفرد

من وجهة النظر السيكولوجية، يبدو أن العالم يمكن تقسيمه إلى مجموعتين متمايزتين. هناك من يسعون إلى التفرد، وهم الذين يرومون رسم حدود بين أنفسهم وبين الآخرين، الذين يرغبون في رؤية معتقداتهم الخاصة على أنها فريدة من نوعها، متميزة تمامًا عمّا يعتقده الآخرون، وجهة نظرهم أنهم دائما على حق والآخرون على خطأ. على الجانب الآخر، هناك أولئك الذين يهدفون إلى البحث عن أرضية مشتركة بين المعتقدات، والنقاط المشتركة للعيش سويا. يحدث هذا حتى بين المؤمنين المنتمين لنفس العقيدة. وكما قال أحد الحكماء: «لقد رسموا مربعاً وتركوني خارجه. فرسمت دائرة وأدخلتهم فيها».

ولكن ما هو العنصر النفسي الشخصي الذي يدفع بعض أتباع ديانة ما إلى تضييق الدائرة وقصرها عليهم، ويدفع البعض الآخر إلى البحث عن الشمولية والعيش المشترك؟ يفتح هذا السؤال عددا لا حصر له من المناقشات التي دارت في الغرب حول العلاقة مع الإسلام. عندما أحاضر عن القواسم المشتركة داخل الديانات الإبراهيمية، أواجه أحيانا اعتراضات. ألاحظ، على سبيل المثال، أنه بالنسبة إلى المسلمين لا يشير الله إلى إله آخر أكثر من ديوس Dios عند الإسبان، أو ديو Dieu عند الفرنسيين، أو Bog عند الروس، أو التانر Tanri عند الأتراك. في الواقع، يشير المسيحيون العرب باللغة العربية إلى إلههم باسم "الله". هذه كلها كلمات مختلفة في لغات مختلفة لنفس المفهوم - الله الواحد. لكن بعض المسيحيين الغربيين سيعارضون: "ليس الله هو إلهي. فقد اختار إلهي يسوع كابن وحيد له، مخلّص البشرية وشفيعي. وهذا ليس إله الإسلام". بمعنى ما، هذا صحيح تماما. بعض اليهود أيضاً سيعارضون قائلين، إنّ "الإله المسيحي ليس إلهي لأنه ولد ابنًا، وهذا المفهوم غريب عن اليهودية. علاوة على ذلك، وفقا للعهد القديم، من الواضح أن يسوع ليس هو المسيح الذي يعتبره المسيحيون نبيهم". وهذا صحيح أيضًا، وسيصف بعض المسلمين المتعصبين

المسيحيين واليهود بعبارات إقصائية أو بوصفهم ''كفارا'' بالإسلام، وليس بوصفهم ''أهل الكتاب'' كما ورد في القرآن.

ولعل من يشعرون بأن ثقافتهم ومجتمعهم مهددون سينجرفون نحو رسم حدود فاصلة، نحو اعتقاد إقصائي، في محاولة لحماية تراثهم الثقافي المهدد. في هذه الحالة، نحن نتحدث بالفعل عن دوافع نفسية واجتماعية، لا دينية، تكون محركة لهذا السلوك.

نحن نرى، إذن، كيف كان الإسلام جزءا كبيرا جدّاً من تطور التفكير الديني واللاهوتي بشكل عام، ويمكن أن يقع في منتصف الطريق بين القطبية اللاهوتية لليهودية والمسيحية. لم يأت الإسلام صدمة لاهوتية للمنطقة. لكنه خدم مصالح القوى الجيوسياسية في المنطقة، مثلما فعلت المسيحية. وبالتالي، فإن الموضوع مرتبط في معظمه بمدى تفاعل الدول مع الأديان. وهنا ستواجهنا قضية هيمنة السلطة على أي دور مستقل للدين. إن هذه الحقيقة تقطع شوطا مهما في إثبات الحجة الرئيسة لهذا الكتاب: أن تاريخ علاقات الغرب مع الشرق الأوسط في أغلبه مرتبط في الحقيقة بالجغرافيا السياسية للإمبراطوريات والدول، ولا يوجد فيه الكثير من الدين نفسه - بغضّ النظر عن الشعارات واللافتات والتوجيه الإيديولوجي التي هي موضع استخدام مستمر من قبل الدول للتلاعب بعقول الجماهير ومشاعرهم. لنقصي الإسلام خارج المعادلة، فإننا سنجد أنفسنا لا نزال في الشرق الأوسط بكافة مفرداته بما فيها تلك العلاقة المتوترة مع الغرب.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2019

جميع الحقوق محفوظة © 2019